

في معرض الآراء

للأستاذ عباس محمود العقاد

—»»»»»—

كتب الأستاذ أديب عباسي في بعض الأعداد القريبة من الرسالة مقالاً سأل في عنوانه : « هل انتهت السياحات والكشوف الظاهرة في القرن السابع عشر أو بعده ؟ » ثم عاد سائلاً فيه : « أصبح أن الكشوف الظاهرة أو الكشوف الجغرافية انتهت في القرن السابع عشر أو حواله ، ومن ثم بدأت الكشوف الباطنة للنفس كنتيجة لانصراف الذهن البشري عن الدراسات والسياحات الظاهرة إلى الدراسات والسياحات الباطنة ؟ ! إنني أشك في صحة هذا الزعم ، بل أكاد أنفيه قاطعاً »

ثم استطرد في جوابه قائلاً : « ليست السياحات الظاهرة وفقاً على الضرب في مجاهل الأرض واكتشاف كل رجا من أرجائها ؛ وليس الاستشراف للمجهول في خارج حدود النفس الإنسانية قاصراً على الحدود الجغرافية لقارات الكرة الأرضية ؛ فهناك السماء بموالمها الشاسعة ، وأكوانها المبهوتة في رحاب الكون ، وأسرارها المحيرة ؛ وثبت الذرة بصفتها المعجبة وسلوكها الغريب وأسرارها الدقيقة ؛ وهناك أمواج الأمير من ضوء وحرارة وكهرباء وأشعة كونية . . . » إلى أن قال :

« من يستطيع أن يقول : إن الكشوف الظاهرة التي تمت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وبداية هذا القرن في عوالم الطبيعة والحياة تقل روعة وأسراً للخيال وشدها للإنسان عن أروع المغامرات الجغرافية التي تمت في القرن السابع عشر أو بعده ؟ ثم هذه الكشوف الجغرافية ذاتها هل انتهت حقاً في القرن السابع عشر ؟ أين مغامرات سكوت وشا كلثون وبيرو وغيرهم . . . »

ومن طرائف المناقشات أن تأتي هذه المناقشة من الأستاذ أديب عباسي تعقياً لما أسلفناه في مقال « الحدود الحاسمة » الذي قلنا فيه إننا قد نستغنى في الحدود والتعريفات عن الإحصاء والاستقصاء لما هو معلوم غنى عن البيانات من ضرورات الاستثناء في كل قاعدة . فإذا قال الإنسان إن النهار مضى وإن

الليل مظلم فليس من الواجب بعد ذلك أن يحصى أيام النسيم ولا الأغوار المحجوبة التي تنظم بالليل والنهار فقد حدثت كشوف جغرافية في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولكنها كلها لا تخرج عن « المتهمة » التي تأتي بعد الفراغ من الأسس والأركان واستقرار البناء على نظامه الأخير . وكذلك تقول مثلاً إن القرن التاسع عشر كان قرن الانقلاب الصناعي ولا يمنع بذلك استمرار الاختراع في عالم الصناعة إلى القرن العشرين بل إلى هذه الساعة

فالأرض نفسها كانت مجهولة قبل الكشوف التي بلغت أوجها في القرن السابع عشر وما حواله والبنية الإنسانية نفسها كانت مجهولة قبل تلك الكشوف ، فكان من الناس من يتنازع في شكل الأرض وفي القرار الذي هي قائمة عليه ؛ وكان منهم من يزعم أن الإنسان في بعض الأصقاع يشبه الكلاب أو يشبه الفيلان ، ويجري التناسل بينه وبين فصائل شتى من الحيوان

فلما انتهت كشوف القرن السابع عشر انتهى الخلاف في أمر الأشكال والظواهر ، وانفتح المجال للبحث في الحقائق والبواطن ، أو لمعرفة الإنسان نفساً بعد أن عرفناه بتركيبه ووضعناه في موضعه من عالم الأحياء الظاهريين ولقد ذكر الأستاذ « أديب » كشوف الكواكب وكشوف الذرة وأمواج الأثير والأشعة الكونية ، إلى أمثال هذه الكشوف العلمية التي حدثت بعد القرن السابع عشر ولا تزال تحدث في هذه الأيام

ولكن ما شأن هذه الكشوف وما نحن فيه ؟ وأين هي من « الحاسة الاجتماعية » التي تتعلق بها القصص وأبطال الرواية وأبطال السياحات ؟ أو التي تتعلق بها الديمقراطية وما لها من الأثر في وصف المجتمع وتحليل أفراد وطبقاته ؟

فالباشع الذي يمود من الأقطار الآسيوية وقد روى لأبناء وطنه أنباء البنخ والفخامة ونوادر الذهب والفضة والجواهر والتفائس في أيدي الناس ؛ يلهب أشواقهم ويطلق آمالهم وأحلامهم وأوهامهم أضعاف أضعاف ما يفعله كشف الذرة وما إليه من كشوف لا تنصل « بالحاسة الاجتماعية » إلا من بعيد وألف كشف من كشوف « الذرة » لا يفيرو وصف الأبطال

في القصص والروايات إلا أن يسئل إلى اختراع طيارات أوسفن أو أسلحة أو ما شابه هذا من أمور تتصل « بالحاسة الاجتماعية » على نحو من الأنحاء

فالعمل فيها كنا نبجته من اختلاف وصف الأبطال في القصص بين المصور القديمة والمصور الحديثة إنما هو على شعور الناس بها ، أو تعلق « الحاسة الاجتماعية » بموضوعها ، وليس العمل على حدودها في عالم الواقع أو تسجيلها في دواوين العلماء و « الذرة » بعد لا يكشفها إلا عالم أو مشتغل بعلم وصناعة ؛ أما البقاع فيكشفها كل من شاء الرحلة من المفاهيم ، ويعنى بها كل من قدم وراءهم من المتخلفين ، ويشغل بها من يراقب الجماهير ويدرس النفوس ويسجل أطوار الشعوب والأفراد . فهي لا تنعزل عن الحياة الاجتماعية ثم الحياة النفسية التي هي موضوع الروايات ومحور وصف الأبطال ، وليست كذلك ككشوف الكواكب أو كشوف القدرات

ولعل فيما تقدم توضيح ما التبس على الأستاذ « أديب » فهو غنى عن الزيد من التوضيح

وقد كتب إلينا الأستاذ عبد الحميد العبادي يسأل عن كتاب الدكتور ويلكوكس واسمه باللغة الإنجليزية ، فذكرنا هذا الاسم في العدد الـ (٢٣٦) من الرسالة ، ووعدنا بالإجابة عما استوضحه الأستاذ من أثر الطريقة الزراعية الحديثة في أحوال العالم بأسره ، وأنه ربما فاق في أنساعه وبعد مداه أثر الانقلاب الصناعي منذ قرن من الزمان

أما شرح الطريقة الزراعية العلمية التي تكفل لكل قطر من الأقطار أن يعيش على موارده الداخلية فليست الرسالة محلها ، ولنا نحن أصحاب الاختصاص فيه

وأما الأثر الاجتماعي فيستطاع العلم به إذا عرفنا ما كان من أثر الانقلاب الصناعي في القرن الماضي ، وعرفنا البواعث التي أفضت إلى ذلك الأثر ولا تزال تفضي إليه

إن الانقلاب الصناعي قد أحوج الدول إلى مستعمرات جلب « الخامات » وبيع المصنوعات وتسخير الأيدي العاملة بأجور الأجور

وإن الانقلاب الصناعي قد أخرج للأمم طبقات العمال وأتار

بينهم وبين أصحاب الأموال ذلك الصراع الذي قوض ما قوض من دول ، وأقام ما أقام من مذاهب في السياسة والدين والأخلاق وإن الانقلاب الصناعي قد أذكى ضرام التنافس بين

الحكومات ، وأنشأ ما أنشأ من حروب وثورات فكل هذا يتغير لا محالة إذا استغنت كل أمة عن الخامات واستغنت عن الأسواق

كل هذا يتغير إذا نجحت طريقة المجددين في الزراعة العلمية واستطاعت الأمم أن تعيش على مواردها الداخلية كما يقول الدكتور ويلكوكس في كتابه الذي أشرنا إليه

كل هذا يتغير ، ويتغير معه تقسيم المجتمع وتقسيم الثروة وتقسيم عناصر الحكومة وتقسيم عوامل السياسة وما يتبعها من أهبة الحرب وأهبة الفتحة وأهبة « التحالف » من جهة ، والتعاضد والتباغض من جهة أخرى

لخامات في الخارج فلا مستعمرات ، ولا أسواق في الخارج فلا منافسات ، ولا احتكار فلا تكديس للثروة ولا نزاع بين العاملين وأصحاب رؤوس الأموال ، ولا تسليح من ثم ولا توجيه للمصانع إلى غير المفيد من صناعات العمار والإنشاء دون التدمير والتقويض . وإذا احتاجت الأمم إلى بعض الخامات أو بعض الأسواق ، فإنما يكون ذلك في أمان واستقرار وتعاون واشتراك على النحو الذي يجري به البيع والشراء بين الأفراد ، أو على النحو الذي يجري به التبادل بين جماعات التعاون ولا سيما في بلاد الشمال ونمى بها بلاد الدنمرك والسويد والترويج

ذلك يحمل الدعوة التي يبشر بها المجددون في علم الزراعة والشفقون على بنى الإنسان من أهوال الحروب

والمذهب معقول في أصوله وفروعه . ولو أنه مشكوك في

مقدماته أو في نتائجه لكان مع ذلك جديراً بالبحث والمتابعة والجد

في تحقيق ما يستطاع من خيراته وحسناته ، لأن متابعة الأحلام قد تجوز إذا عظمت الغاية وعظم الخطر المرهوب . وأى غاية أعظم من انتقاء الحروب ؟ وأى خطر أعظم من خطر الفجائع التي تطبق على الشعوب المسوقة إلى تلك الحروب ؟

إن متابعة الأحلام قد تجوز في هذا المقام ، فكيف بالبحوث العلمية وكيف بالوقائع والأرقام ؟

هباس محمود العقاد